دور المكاتب العربية في التغلغل الفرنسي بالجنوب الشرقي

"نموذج مراسلات بيرو عرب الاغواط – غرداية"

The role of arab offices in the French penetration in the south-east "the (bureaux arabes) Laghouat-Ghardaia correspondences model."

طالبة دكتوراه/ جميلة ايعيش

جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله.

الملخص:

لقد انتهجت فرنسا عدة طرق لبسط سيطرتها على البلاد في مختلف جهاته، ومن بين هذه الوسائل هي المكاتب العربية التي تعد إحدى الركائز الأساسية للسياسة الفرنسية في الجزائر، للتغلغل الاستعماري وتسيير أمور البلاد من خلال تزويد الادارة الاستعمارية بكل المعطيات والتفاصيل المهمة عن المجتمع، والقضاء على الثورات الشعبية وعرض خدماتها على زعمائها للتخلي عن رفع السلاح، بالإضافة إلى التجسس على الاهالي وتتبع أخبارهم، وتدوينها ورفعها إلي هافي شكل تقارير وبشكل مستمر. وسنتطرق إلى نموذج المراسلات المتبادلة بين المكتب العربي بالأغواط وغرداية، للتعرف

على الدور الذي قامت به في التغلغل وافشال الثورات الشعبية بالجنوب الشرقي.

الكلمات المفتاحية: المكتب العربي؛ بيرو عرب، الاغواط؛ منطقة وادي ميزاب.

Abstract:

France has taken several ways to extend its control over the country in all its aspects, including the arab offices, which are one of the French policy in Algeria, to overcome the colonial and to manage the country by providing the colonial administration with all the important facts and details about society, the public revolutions were eliminated and their leaders to abandon the arms-lifting, as to spy on the people,track their news, write them and raise their top in the form of reports and continuously, ve will discuss the model of correspondence between the arab office in laghouat-ghardaia to learn about its role in infiltrating popular revolts in the south-east of Algeria.

Keywords: Bereaux arabes, Lahgouat, Mezab valley region.

لقد عملت فرنسا منذ احتلالها للجزائر سنة 1830م، على تحقيق العديد من المكاسب في مختلف المجالات السياسية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لذلك حاولت تثمين مكتسباتها الحضارية والإنسانية بالجزائر، ولم يتأتى لها ذلك إلا من خلال رسم سياسة محكمة تمكنها من التحكم بدقة في زمام الامور ولزمن طويل، وبناءً على هذا شرعت في اتخاذ إجراءات عديدة منها نفي العائلات التركية، وتشكيل لجنة حكومية فرنسية تتكفل بإدارة الجزائر وإصدار قوانين وأوامر باسم ملك فرنسا لكي يجعلوا هذا الاحتلال دائماً؛ وأول ما قاموا به ترسيخ سياسة الاستيطان لتثبت جذورهم بالجزائر، وواكبت ذلك بإصدار العديد من القوانين والتشريعات التي تخدم الأهداف المرجوة لبسط السيطرة الاستعمارية الكاملة على الجزائر.

لقد واجهت الإدارة الفرنسية أثناء توسعها في البلاد صعوبات كبيرة جراء رفض وامتناع أبناء الجزائر التعاون معهم ومهادنتهم، لهذا قرر الجيش الفرنسي عام 1833م إنشاء هيئة مكلفة بجمع المعلومات عن الجزائريين، وجعلها جسر يربط بين الفرنسيين والجزائريين وفي عام 1837م، تحولت هذه الهيئة إلى "ادارة للشؤون العربية" [1] ثم اهتدوا إلى إنشاء ما يسمى بالمكاتب العربية، والتي نشطت في عهد الإمبراطور نابليون الثالث [2] في جميع أنحاء البلاد. وللتحكم في أمورها أسندت ادارتها إلى مجموعة من الضباط العسكريين الذين كانوا يجيدون اللغة العربية قصد

التواصل المباشر مع الأهالي؛ وقد ساعدهم في مهمتهم مجموعة مـــن القياد، وأعيان القبائل والشيوخ [3]. وهي أيضا إحدى الركائز والدعامات الأساسية للسياسة الفرنسية في الجزائر التي لعبت دوراً كبيراً في التغلغل الاستعماري وتسيير أمور البلاد، من خلال تزويد الادارة الاستعمارية بكل المعطيات عن الأهالي والمجتمع، والقضاء على أي ثورة شعبية في المهد، من خلال التجسس، ومعرفة التفاصيل الدقيقة على تحركات الاهالي وترصد أخبارهم وتدوينها ورفعها إلى هذه المكاتب العربية.

لذلك أردنا من خلال المقالة أن نتعرف على الدور الذي لعبته المكاتب العربية كوسيلة للتغلغل بالصحراء الشرقية ما بين 1850م إلى 1875 م، ومدى مساهمتها في اعاقة سير الثورات الشعبية. وقد اختارنا نموذج مراسلات تأليف" إعطاء الضوء للصحراء" الذي وردت فيه تفاصيل جد دقيقة ومهمة عن سكان المنطقة وما جاورها، وتعقب أخبارهم أسبوعيا تقريباً للمكتب العربي بالأغواط، بناء على أوامره وطلباته، وذلك قصد التعرف والاطلاع على نوعية التقارير المرفوعة لهذا المكتب، كأسلوب مراقبة وتضييق الخناق على الثوار الذين اختاروا المنطقة كقاعدة خلفية للتزود والتحرك بحرية، وافشال أية حركة عسكرية شعبية، ومنع الاهالي من التعاون معهم بوادي ميزاب، والمناطق الصحراوية المجاورة له.

اعتمدت في دراسة الموضوع على مادة علمية محلية ومعاصرة لسياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الشرقي، وعليه فان مقالتي التي هي بعنوان " دور المكاتب العربية في التغلغل الفرنسي بالجنوب الشرقي " نموذج مراسلات بيرو عرب الاغواط - غرداية"، هي قراءة في بعض التقارير والأجوبة المرفوعة بين المكتب العربي بالأغواط، وبين المكتب العربي بغرداية ما بين 1861 إلى سنة 1875م. لإبراز الدور الذي لعبه المكتب العربي بالأغواط؛ في التجسس على أحول المنطقة (الشبكة) الصغيرة منها والكبيرة وما قرب منها من المناطق. فمن خلالها نستخلص أهميتها وقيمتها التاريخية محليًا وجهويًا ووطنياً.

مع اقتراب انطفاء مقاومتي أحمد باي والأمير عبد القادر بدأت تتضح معالم الاستيطان تبرز ومعها فكرة الادماج، كما قسم القطر الجزائري بعد صدور المرسوم الاداري في 15أفريل 1845م، إلى قسمين: القسم الشمالي والقسم الجنوبي فكانت ميزة الأول مدني يسكنه الأوربيين والجزائريين؛ وقسم بدوره إلى ثلاث عمالات: عمالة الجزائر، وعمالة قسنطينة وعمالة ووهران [4]؛ أما القسم الجنوبي فهو خاضع للنظام العسكري يسكنه الجزائريون ويشمل الهضاب العليا و الصحراء [5]، وسيرت أمورهم بواسطة المكاتب العربية حتى سنة 1870م، تاريخ استبدالها أعوامًا

بعد ذلك بنظام "ضباط الشؤون الأهلية" وهم نفس ضباط المكاتب العربية السابقين، وقد إنقسم هذا الأخير إلى أربعة مناطق: منطقة تقرت، منطقة غرداية (قاعدتها الاغواط) منطقة عين الصفراء، ومنطقة الواحات [6]؛ فالإدارة العسكرية في الجنوب وطدت توغلها بواسطة المكاتب العربية والقواد [7]. وقبل أن ندخل في التفاصيل يجب أن نعطي تعريفاً لهذه المكاتب العربية.

- تعريف المكاتب العربية:

تعرف المكاتب العربية بأنها همزة وصل بين الجنس الأوروبيين والأهالي، وسميت بـ" بيرو أراب" وكانت بمثابة حكومة محلية تباشر تسيير شؤون الجزائريين [8]، وتهدف إلى ضمان التهدئة بين القبائل من خلال وضع ادارة منتظمة، تسهر على توفير الأمن والاستقرار للجنس الأوروبي الذي رافق الحملة الفرنسية على الجزائر، وهي مركز السلطة الفرنسية لإدارة شؤون الاهالي في الأمن والقضاء فهي التي تتولى شؤون الجزائريين؛ (وكان العرب يسمونها مخازنية) وقد انتشرت عبر الاجزاء المحتلة من الجزائر، واستمرت في عملها إلى سنة 1870م ثم انحصرت في المناطق الجنوبية [9] واعتمدوا على أسلوب الحل المراوغة والتجسس كحل للمشاكل بدل المواجهة العسكرية، و يقوم موظفي هذه

المكاتب بدراسة أحوال وأوضاع البلاد من عدة جوانب ، وخاصة من ناحية الاستعداد لمواجهة أي انتفاضة وتحضير قوة عسكرية لهذا الغرض .

- نشأة المكاتب العربية:

كانت البدايات الاولى لنشأة المكاتب العربية بعد احتلال فرنسا لمدينة قسنطينة في 13 أكتوبر 1837م [10]؛ بحيث أسندت رئاسة إدارة الشؤون العربية للنقيب " ألونفيل" سنة 1839م الذي حل محل الرائد بليسي [11] وقتها وجدت فرنسا نفسها أمام وضع جديد يحتم عليها ايجاد أسلوب للتحكم في أمور الأهالي، وبعد مناقشات عديدة حول الإدارة الفرنسية في الجزائر، أُنشِأَت إدارة المكاتب العربية بمقتضى مرسوم وزاري في 1 فيفري 1844 م [12].

-الموظفون:

سيرت المكاتب من طرف قائد المكتب، وهو برتبه ملازم أو نقيب، فلقد اعتمدت الادارة الفرنسية في تسيير الشؤون الاهلية على ضباط كانوا يتكونون تكويناً خاصاً [13]، ويضم كل مكتب ضابط رئيس، وطبيب، وترجمان، قاضي، وشاوش(حاجب)، وكاتبين أهلي وأوروبي بالإضافة إلى عدد من فرق الصبايحية [14]، ويجب على قائد المكتب أن يجيد اللغة العربية وملم بعادات وتقاليد وطبائع الأهالي، ويتميزون بنوع من الاستقلالية في التعامل مع الأهالي، حتى

أصبحوا في نظر الأهالي بمثابة الحكومة ورئيس المكتب العربي بمثابة السلطان [15]. ولأهميته في الحفاظ على الأمن بعد عملية التوسع واحتلال بعض الأجزاء الشمالية من الصحراء كان لابد من زيادة عددها، بحيث اختلف عددهم حسب ظروف المكتب، ومكانه وعدد سكان الجهة، فبعد التوسع في إنشاء المكاتب العربية وتقوية أجهزتها الادارية والسياسية، بحيث بلغ عددها سنة 1844م واحد وعشرين (21) ليصبح أربعين (40) مكتبًا عام 1857م، ثم ليرتفع إلى تسع وأربعين (49) عام 1870م، وتضم 150 ضابطاً عام 1857م ليصير العدد حوالي مئتين وستة (206) ضابطاً عام 1866م[16].

فهذه المكاتب سيرت من طرف ضباط فرنسيين ذو سلطة مطلقة مكلفين بالشؤون الحربية والأمن والعدالة والضرائب ومصادرة الأراضي، ومراقبة تحركات سكان البوادي، ويعينهم في ذلك بعض القياد، والأغوات، والباشاغات كجواسيس يتمتعون بامتيازات متعددة؛ منها الاعفاء من الضرائب وأجرة شهرية ثابتة، ونتيجة ذلك فقد عانى الشعب الجزائري الكثير من تعسف هذه المكاتب وأعوانهم فتعرضوا للظلم الذي لحق بهم وللضريبة الجائرة المفروضة عليهم [17].

- مهام المكاتب العربية: من بين أهم مهامها ما يلي:

1- الاشراف على عملية جمع الضرائب واستصدار قرارات في المسائل الشرعية أو القضائية[18].

2- مراقبة نشاط المرابطين وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية والتجمعات الدينية.

3- التعرف على قادة ومشايخ الأهالي والعائلات ذات النفوذ [19]

4- التعرف على الأحوال الخاصة للأهالي قصد جمع المعلومات الخاصة بالمجتمع الجزائري في مختلف جهاته لتسهيل احتلال ما تبقى من أجزائه.

5- التجسس وتقصي أخبار الأهالي والقبائل وتتبع تحركاتهم وبخاصة تلك التي ساندت الزعامات الشعبية لإخماد أي محاولة تمرد وثورة في المهد.

6- التمهيد للتوغل الداخلي قصد تحقيق الاحتلال الشامل لإقرار الأمن ولاستقرار.

7- بسط الأمن والهدوء على مختلف الأرجاء تمهيداً للتوغل إلى باقي دول افريقيا، وتنشيط التجارة الصحراوية والافريقية للسيطرة عليهما.

8- المراقبة التعليم العربي والاشراف عليه [20].

- الإطار الزماني للتقارير:

أغلب التقارير والمراسلات التي جمعت عددها تسع وسبعين 79 تقريراً، كتبت في الفترة الزمنية الممتدة ما بين سنوات 1861م-1882 م ، أولى الجوابات المذكورة في الكتاب كانت في 13 أكتوبر 1861م صادرة من طرف الكولونيل "لابروس" الحاكم الكبير بالأغواط، وأخرها جواب

من السيد القبطان "سبتالي" حاكم بيرو عرب بالأغواط في 22 مارس 1882م. وهي السنوات التي شهدت ضغوطاً مارسها الجيش الفرنسي على الجزائريين بمختلف وسائله ، وكان من بينها المكاتب العربية التي بلغ عددها عام 1865م في قسنطينة إلى 15 مكتبا، وفي الجزائر 14 مكتبا و 12 مكتباً في وهران، بغية تحقيق أهدافه والتي من بينها تشجيع الاستيطان، ففي الفترة الممتدة من 1866م إلى 1872م ارتفع عددهم إلى ما يقارب 280.000 [21]، إضافة إلى المجاعات وخاصة مجاعة 1867-1868م، وكذا الأمراض التي قضت على الأخضر واليابس وازدياد النشاط التنصيري بالجزائر، وما زاد الأمر تعقيد هو وصول المستوطنين إلى الحكم في البلاد وتصرفهم فيها كما يشاءون بعد سقوط نابليون الثالث في سبتمبر 1870 [22]. هذه الظروف والمعطيات التاريخية هي التي أججت استمرار الثورات الشعبية في الجزائر، كثورة أولاد سيدي الشيخ 1864م-1880م [23]، وثورة المقراني والشيخ الحداد 1871م [24]، وثورة محمد بن تومي بوشوشة، وثورة الشيخ بوعمامة 1881-1904م والعديد من الانتفاضات الشعبية.

- المناسبة التي ألف فيها الكتاب:

لقد اطلقت فرنسا سلسلة من القوانين الادارية والعسكرية قصد ترهيب الشعب وإحكام سيطرتها على الجزائر وإدماجها

بفرنسا للتحكم في مصير الجزائريين ، كمراسيم تمكين المستوطنين التي صدرت عبر فترات منذ سنة 1870م وقوانين الاهالي أو الاندجينا [25] (*Code de L'Indigénat*) الذي أصدرته الجمهورية الفرنسية سنة 1871م[26]، وتَم تدعيمه في عهد الرئيس جول فيري Jules ferry في 28 جوان 1881م [27]، ولعل أخطر هذه القوانين هي تلك الحزمة التي أطلقتها وأرهبت بها الجزائريين ؛كقانون الزجر الجاري على المسلمين، وإخضاعهم للمحاكم الزجرية الفرنسية التي يرأسها المحلفون اليهود الحاقدون والمخادعون. وما جاء في مقدمة هذه التقارير ما يلي:".. ومن ساير القوانين التي أبرزتها الدولة سنتكلم على قانون الزجر الجاري عل المسلمين.... ان الدولة الفرنساوية اسست ورتبت قانون لانديجينة بإقليم الجزائر مراعة العافية والهناء في الاعراش ..." [28].

فقد عاشت الجزائر أواخر الستينات 1865-1870م، أوضاعاً معقدة على مختلف الميادين فمن الناحية الاقتصادية انتزعت منهم الأراضي الجيدة، وتم توزيع الاراضي الفائضة عن احتياجات كل عرش، لأن وجودها يمنع توسع الاستيطان الاوروبي بالجزائر، ولكيلا تكون قواعد خلفية لإمداد وتزويد الثوار فطردوا بالجملة إلى المناطق الفقيرة ، فأدى ذلك إلى تفقيرهم وتشتيتهم، وانتشار الفقر والامراض المعدية، والمجاعات ونتيجة الضغوط التي مارستها الإدارة الفرنسية، كان قيام الثورات الشعبية أمراً حتمياً بعدما بلغت الأمور ذروتها من التعفن والتدهور والظلم والسلب والنهب، وقد تم إيصال هذه

القوانين الجديدة والجائرة إلى الأهالي عن طريق هذه المكاتب ، تحت غطاء المحافظة على الامن وتوسيع نفوذ الدولة الفرنسية.

- محتــوى التقاريـــر:

عدد التقارير هو تسع وسبعين (79) تقريراً، بالإضافة إلى أخبار بعض شخصيات منطقة وادي ميزاب بدءً من عام 1830 إلى أواخر القرن التاسع عشر، وقد تم ذكرهم في الصفحات الاخيرة من الكتاب؛ جمعت هذه التقارير في هذا المؤلف الذي يحتوي على احدى وثمانين (81) صفحة، وهو عبارة عن مراسلات وأجوبة (أوامر، وتدابير، واعترافات) بين أعوان المكتب العربي بالأغواط وبين أعوانه بغرداية، وبعض قياد منطقة وادي ميزاب. وهي مترجمة على يد السيد هانري بورجوة الترجمان المحلف [29] بقسنطينة سنة 1883 م، وكتبت بالغة العامية (الدارجة) لذلك نجدها مليئة بالأخطاء اللغوية والاملائية، ونقلناها في مقالنا دون تصحيح لِها أو تصويبٍ للأخطاء اللغوية والاملائية كما أنها لم ترتب زمنياُ.

أغلب هذه التقارير والأجوبة الصادرة من المكتب خلال فترة السيد القبطان دوران [30] حاكم بيرو عرب بالأغواط، فنجد عدد المراسلات الصادرة عنه احدى وأربعين (41) مراسلة وجواب، وأولى مراسلاته كانت في 26 جوان 1865م، وأخرها في 6 ديسمبر 1876م. فرغم سقوط حكومة نابليون الثالث في سبتمبر 1870م، وسيطرت المدنيين على

مقاليد الحكم، وإصدار قرارين بتاريخ 24 أكتوبر و10نوفمبر 1870م اللذان تم بموجبهما إلغاء المكاتب العربية [31]، إلا أننا نجدها حتى بداية 1882م تؤدي في وظيفتها المنوطة بها هذا ما يحيلنا إلى القول بأن الغاء المكاتب العربية في الجنوب استمر لسنوات بعد القانون الصادر السالف الذكر. إذ تم استبدالها "بنظام الشؤون الأهلية" وهم نفس ضباط المكاتب العربية السابقين [32].

أما فيما يخص المواضيع التي تناولتها التقارير والمراسلات فيمكن تحديديها فيما يلي:

1- التجسس على المنطقة ورصد الجديد بها بشكل مستمر.
2- مراقبة تحركات القبائل المارة والمستقرة بها.
3- غلق أسواق وادي ميزاب أمام الثائرين والموالين لهم.
4- تتبع أخبار زعماء الثورات الشعبية بالجنوب الشرقي والغربي.
5- تتبع أخبار وتحركات أولاد سيدي الشيخ.
6- التطرق إلى النزاعات القبلية والبحث عن المشتبه فيهم.
7- نقل ما كان يحدث من وقائع ذلك الزمن في بعض الدول المجاورة، كتونس والمغرب، وحتى فرنسا.

يشتمل الكتاب على مقدمة جاءت في تسعة (9) صفحات، وكان الحديث فيها توضيح للقوانين الشرعية والمخزنية التي أصدرتها فرنسا في سبعينيات القرن التاسع

عشر والهادفة حسبهم إلى نشر الامن والهناء في القطر الجزائري وخصوصا قانون الانديجينا لذا وجب على الأهالي تقبله.

ليتناول بعد ذلك الكتاب تفصيلات هذه المراسلات والأجوبة الواردة والصادرة من وإلى المكتب فخصص الحديث في جل صفحاته إلى نقل أخبار المنطقة الجنوبية الشرقية والغربية، كثورة أولاد سيدي الشيخ وحتى الشمالية منها في بعض الأجوبة كانتفاضة الأوراس سنة 1871م، هذه الاجوبة والمراسلات التي وردت في الكتاب غير مرتبة لا من حيث التسلسل الزمني ولا من حيث المكان ولا الأهمية التاريخية؛ أول خبر من حيث التسلسل الزمني تم التطرق إليه في بتاريخ 13 أكتوبر 1861م من الكولونيل " لابروس" الحاكم الكبير بالأغواط، وهي دعوة موجهة إلى سكان ميزاب يدعوهم فيها للمجيء للأغواط للالتقاء بالماريشال الذي يقوم بزيارة المدينة في التاسع عشر من نفس الشهر والسنة، وقبل هذا التاريخ في سنة 1860م رفضت جماعات كل من بني يزقن، ومليكة، وبنورة والعطف وبريان إفادة ممثليهم لحضور احتفالات الاستقبال بالعاصمة الجزائر عند زيارة الامبراطور نابليون الثالث المدينة ما جعل الجنرال يوسف بالأغواط يغرم بني يزقن بـ 30000 فرنك ومليكة بـ 6000 فرنك وبنورة 3000 فرنك و6000 للعطف و5000 لبريان[33].

أهم ما تطرقت إليه أجوبة الستينات المقيدة في التقارير وعددها سبعة، كانت تدور حول التجسس عن تحرك بعض قبائل الطوارق والمواضي نحو ورقلة والظهرة، قصد التشويش على فرنسا وأخبار أخرى كان الحديث فيها عن النزاعات القبلية حول الماشية والبحث عن المطلوبين والمشبوه فيهم.

أما فيما يخص التقارير المذكورة والواردة من المكتب العربي بالأغواط خلال السبعينات، فقد أخذت حصة الأسد من المرسلات، إذ يبلغ عددها ثمان وستين (68) مراسلة، وقد تميزت هذه السنوات بتطبيق قوانين مجحفة خاصة بأملاك الجزائريين وبمجاعات مهلكة لم يسبق لها نظير في تاريخ البلاد. ولكن البلاد لم تفقد الامل آنذاك بسبب استمرار الكفاح المسلح في مختلف جهاته لذلك رأينا كثرة التقارير الصادرة من المكتب خلال هذه السنوات، حيث كان مضمونها يدور حول تتبع أخبار وتحركات أولاد سيدي الشيخ [34] بالمناطق المجاورة، فهذه العائلة كان لها تأثير كبير في جل المناطق الصحراوية وقد أدركت فرنسا هذا الامر فسارعت إلى احكام السيطرة على وادي ميزاب حتى لا يصل إليه هذا التأثير، ولا يكون ملجأً للثوار الفارين؛ ولكيلا يتعاون أهله مع أصحاب الزعمات الشعبية الرافضين للوجود الفرنسي

كبوشوشة [35]، وسي الزبير ولد بوبكر سيدي الشيخ، وبعض الشخصيات من مدينة متليلي والمنيعة.

إنّ الحديث عن الثورات الشعبية وخصوصاً المذكورتين آنفاً ، بحيث شكلتا على مدار ما يزيد عن خمس عشرة سنة سدًا منيعًا في وجه التوسع الفرنسي نحو الجنوب الشرقي، واستعملت فرنسا كل الأساليب من أجل القضاء عليهما، وذلك حسب مراسلات المكتب العربي؛ فشكلا الاهتمام بهما نسبة ثمانين بالمائة من تقارير المكتب المذكورة في الكتاب، وبما أن هذه المراسلات مترجمة باختصار إذ ورد في الصفحة الثانية والستين ما يلي: '... وهذه الاجوبة المذكورة اعلاه مترجمة بالاختصار في سنة 1883 على يد مسيو هانري بورجوة الترجمان المحلف بقسنطينة ...'، نستنتج من ذلك بأن التقارير الاصلية كانت معلوماتها أوفى ومفصلة ودقيقة وربما خطيرة لا نعلم لماذا تم اختصارها في ذلكم الوقت.

كما أن الحديث الوارد في مراسلات المكتب دار وبشكل مركز حول كيفية القضاء على الثورات التي لازالت حينها مشتعلة خصوصا في الجنوب الشرقي، وهو ما دفع بفرنسا إلى تجريب كل الاساليب، من سياسة فرق تسد والاعتماد على "القوم" (جنود جزائريون متطوعون في جيش

فرنسا) لإخضاع البلاد لسلطة فرنسا؛ ومن تلك الحوادث التي كانت موضوع الاجوبة أنه لما كان وادي ميزاب ملجأً وملاذاً أمناً للثائرين على فرنسا وكقاعدة خلفية ، بعدما فتحت الاسواق أمامهم للتزود بالمؤونة والسلاح والبارود؛ باعتبار أن المنطقة كانت إحدى أهم مناطق الواحات التي تصدر منها الاسلحة المحلية [36] لذلك حرصت فرنسا على قطع طريق المد أمام الثائرين ومنعهم من دخول المنطقة ، وهذا ماورد في جواب السيد الكوماندان "يمون" حاكم دائرة الأغواط يوم 12 أوت 1872م حين يقول في نصه"...فهانا نخبرك فلا تخلف أحد من المنافقين ولا من اولاد سيدي الشيخ يدخل واد مزاب واياك ذلك..." [37]، وجواب أخر من السيد القبطان دوران مؤرخ بيوم 6 جوان 1872 م نصه:"...ولتعلم ايضا وان السيد الكماندان قد عطاء الاذن للقوم على ناس المنافقين فان لا يدخلوا مزاب سواء قدموا يتسوقون او ببيوتهم او برقابهم فانهم يمنعونهم كلهم او يقبضوهم لنا كبيت بن اعيش وعبد الرحمان بن الحاج يوسف وبيوت المواضي..." [38].

لم تخلوا التقارير الصادرة والواردة من وإلى المكتب العربي من أخبار التجسس على سكان ميزاب ومتليلي والمنيعة وحتى المدن المجاورة كورقلة ، وبريزينة ، والبيض، والاغواط ، والجلفة والمدية، وتتبع أخبارهم عن كتب وأخبار

تنقلاتهم خصوصا المدن التي لم ترضخ في هذه الفترة الزمنية للمد الاستعماري كمتليلي والمنيعة . إذ احتضنتا خلال السنوات الاربعين الاخيرة من القرن التاسع عشر عديد الثورات الشعبية، ومدتا يد العون لكل ثائر في وجه الاستعمار، ويتضح ذلك في ماورد: " ...جواب من الفسيان روبيل خليفة بيرو عرب بالأغواط مؤرخ بيوم السادس والعشرين ديصامبر سنة 1871م ... ولكن بوصول امري هذا اليك تعلمني على اولاد سيدي الشيخ الذين في متليلي الان واش يفعلوا فهل قدموا ميعاد هناك او قدموا حاركين فلا بد تعلمني عليهم ...." [39]؛ ومقصوده بالحاركين المثيرين للقلاقل والفوضى، فقد كانت السلطة الفرنسية تراقب تطور أوضاع أسرة أولاد سيدي الشيخ من بعيد عن طريق جواسيسها، وجواب أخر من السيد الفسيان روبيل خليفة بيرو عرب مؤرخ بيوم الخامس جانفي 1872م نصه:"...وبعد وصول امري هذا اليكم ...واعلمون أيضا عن الشعانبة والمخادمة إذا عندهم حركة في هذا الوقت والا فلا واعلمون بنا ذكرته بالعجل ثم العجل..."[40].

من بين أهم أعمال المكتب العربي في هذه الفترة هي ملاحقة الثائر بوشوشة وتتبع حركته التي شملت جغرافياً ورقلة ، ومتليلي والمنيعة وعين صالح [41]، بعد أن تغلب بوشوشة على كل من تصدى لمقاومته، وسيطرته على بعض

المدن الصحراوية كورقلة في 5 ماي 1871م [42]، وقد شكلت ثورته منذ البداية خطراً على فرنسا التي بدلت مجهودات كبيرة لإخمادها والتعرف على أتباعه في المنطقة التي ينشط بها، والاستعلام على قوته وذلك في رسالة السيد الفسيان ريبيل مؤرخ بيوم السادس والعشرين ديصامبر سنة 1871م اذ يقول فيها: "... واعلمني ايضا على بوشوشة فهل مات صحيح والا فلا... " [43]، وهو دليل واضح على أن هذا الثائر شكل منذ البداية مصدر ازعاج حقيقي للوجود الفرنسي في هذه الرقعة الجغرافية، نظراً لاستعماله أسلوب الكر والفر والمباغتة والتنقل بسرعة من مكان إلى أخر، لذلك كان أمر تتبع أخباره عن طريق أعوانها ضروري، وزرع الفتة نبين اتباعه هو الأسلوب الأنجع للقضاء عليه.

وأيضا ما ورد من السيد الكورونيل "دي لا ميرس" مؤرخ بيوم التاسع عشر فيفري سنة 1872م يقول فيه: "...وبعد وصول البطاقة اليكم تقبض جلول بن الحاج محمد بن الحفيان الذي كان هو خوجة على بوشوشة وثانيا تقبض عبد القادر ابن الحفيان بن كبدى ..." [44]، ومحاولة معرفة نهايته، هل مات أم لا ؟، وكلفت خدامها بالقضاء عليه أو المجيء به حياً. فالرسائل الصادرة من المكتب العربي إلى قوادها في شأن التخلص من الثائر بوشوشة كانت كثيرة وطويلة خلال سنوات 1871م و1872م، و1873م [45]،

وصدرت من عديد العسكريين في المدينة من رتبة جينرال وكولونيل وكوماندان ، وفسيان، وهذا يدل على انشغال العسكريين انشغالاً واضحاً بالقضاء عليه وعلى أتباعه ، وقد وردت أطول المراسلات بخصوص هذا الأمر من الجنيرال حاكم القسم الجزايري مؤرخ بيوم السادس عشر جوان سنة 1817م وجاء في نصه : "... إلى جميع ما يقدر على فعله بوشوشة في بلادهم ويقاتله اشد القتال ...ثم إذا انتصر سي الزوبير على بوشوشة فاني أقدر ان انيله شيا اكثر مما وعدته به... وانا يمكننا أن نجعلا جميع ما يأخذه من بوشوشة تحت حكمه..." [46]، وإن الأخبار والأحداث والمعلومات المتعلقة بشأن بوشوشة والمذكورة في الكتاب، متقاربة إلى حد بعيد مع ما ورد في مختلف المصادر والمراجع بخصوصه.

شهدت الجزائر في فترة الستينيات والسبعينات من القرن التاسع عشر تدهوراً كبيراً في عدة المجالات، لم يسبق له مثيل مع بقاء شعلة المقاومة الشعبية متقدة في مختلف جهات الوطن والتي شكلت حجرة عثرة أمام ظاهرة التوسع الاستعماري، حيث سخرت فرنسا عبر سياسة المكاتب العربية كل الامكانيات البشرية والمادية للقضاء عليها وإنهائها، فلا تكاد تطفئ واحدة بشق الانفس في هذه الجهة إلا وتشتعل في جهة أخرى، وهدفها في ذلك تمزيق المناطق

الجنوبية وتفتيت عروشها وزرع الفتنة بينهم، حتى لا تتوحد كلماتهم ضدها.

اعتمد المكتب العربي بالأغواط سياسة أخرى إلى جانب سياسة القوة وهي أسلوب المداهنة واسترضاء بعض الرافضين لها في المنطقة من عروش وجماعات وأفراد، واتضح ذلك في عديد الرسائل الصادرة من المكتب لبعض قوادها للتواصل معهم وإقناعهم بالدخول تحت راية فرنسا، مثلما جاء في في الرسالة المؤرخة في 22 جوان 1871م والتي كان نصها كالاتي:"... فانها اتتني برية من عند السيد الجينيرال الحاكم الكبير بالجزائر في يوم التاريخ وهي عن سبة سي الزوبير بن بوبكر باش نكاتبوه حتى يدخل تحت طاعة الدولة والتزم له السيد الجينيرال بكـــل ما يريد يعطيه وبان يرد له جميع املاكه وغيرها.." [47]، فإعطاء الامان والتودد للمعارضين أسلوب انتهجه السيد كروس وغيره.

تعرضت الجزائر لأزمة غداء حادة نهاية الستينيات أدت إلى هلاك مئات الالاف من سكانها، ما أدى إلى بروز بعض الظواهر الغريبة في المجتمع، وهي في نفس الوقت تعبير عن رفض جماعي أو فردي من جانب قبائل الجنوب الشرقي للوجود الفرنسي في هذا الامتداد الجغرافي؛ كظهور الغزو والاستيلاء على أملاك بعض الاشخاص الساكنين بورقلة

ومتليلي والمنيعة ومنطقة ميزاب وهو ما عرف بحركة "المدقنات" [48].

لم تخلوا التقارير من ذكر محاولة أعوان المكتب العربي بالأغواط من ايجاد الحلول وفض النزاعات بين أفراد المنطقة التي تشملها تغطية المكتب، وفض نزاعات الأهالي حول الاراضي والنخيل والثروة الحيوانية والاستيلاء، وقد امتدت جوسسة المكتب العربي على أخبار الأهالي في التحضير والإعداد للثورة، أو حتى أحوالها أثناء اندلاعها ليس فقط في الجنوب بل حتى في الشمال؛ كما شملت التقارير تتبع تحركات القبائل وتنقلاتهم كقبائل الارباع، وأولاد نايل وتقديم يد المساعدة لهم في حلهم وترحالهم، وإعلام أعوانها في المناطق التي ينزلون بها بضرورة تقديم المؤنة لهم ولمواشيهم.

إن الأخبار الواردة في الكتاب الذي جمعت به التقارير عبارة عن مادة تاريخية محلية في غاية الاهمية تعلقت بمختلف جوانب المنطقة الجنوبية الشرقية، الممتدة من الاغواط إلى غرداية وورقلة ومتليلي، والمنيعة ، وورقلة ، كما نجد في بعض الاجوبة القليلة أخبار جهوية ووطنية؛ إذ تطرق البريد الصادر والوارد من المكتب العربي إلى تتبع أخبار الثائرين إلى الدول المجاورة كالمغرب وتونس ولم يقتصر الأمر

عند هذا بل وردت معلومات من المكتب عن أحوال أوروبا إلى قوادها تعلمهم بشأن انتهاء الحرب الفرنسية الالمانية سنة 1870م، وذلك حسبما جاء في الرسالة المؤرخة بيوم السادس عشر اكتوبر سنة 1870م من طرف السيد الكولونيل "سيريس" حاكم دايرة الأغواط: " ... نخبرك عن افرانسة فانها في الزيادة في هذا الوقت خير من أول بشي ياسر..." [49]، ورسالة ثانية مؤرخة في 5 مارس سنة 1871م من طرف السيد "دروان" :"...نخبرك عن الفرنسين فانه تم الصلح بينهم وبين عدوهم البروسيان ولم تبقى فتنة بينهم الان واما العساكر التي كانت بوطن الجزاير فإنّها ترجع اليه كما كانت..." [50]، وأيضا ماورد في شأن بعض الإجراءات التي اتخذتها فرنسا لتعويض خسائر حربها بزيادة الضرائب على السكان، و ما تعلق بمعاقبة من يمتنع عن دفع الغرامات.

البريد الصادر والوارد من المكب العربي بالأغواط لم يصدر من شخص واحد بل صدر من مجموعة من العسكريين بمختلف رتبهم من رتبة الجنيرال إلى خليفة بيرو عرب، ورغم تبديل وتغيير البعض منهم لمهامهم وعملهم إلى جهات أخرى من الوطن كالجلفة، أو البيض، أو مسعد أو المدية إلا أنهم حافظوا على علاقاتهم مع القياد في كلتا المدينتين قصد ضمان تزويدهم بالمعلومات التي تخدم فرنسا، اتسم التواصل بين المكتبين والقياد من خلال تواريخ

التقارير التي بين أيدينا بالديمومة وبشكل طبيعي إذ نجد عملية التواصل تتم بينهم أسبوعياً أو على الأكثر مدة عشرة أيام.

وخلاصة القول إن المكتب العربي بالأغواط استخدم جميع الوسائل من أجل الاتصال بالأهالي ومراقبة تصرفاتهم وإيجاد السبل السهلة لذلك، فقد نجح المكتب في أداء دوره كهمزة وصل بين الادارة الفرنسية والأهالي لتسيير أحوالهم وأمورهم ، من خلال عمل قياده الذين قدموا معلومات تتعلق بالتجسس على القبائل وتحركاتهم ومراقبة تحركات المجاهدين كبوشوشة ، وأولاد سيدي الشيخ، والشيخ بوعمامة في مناطق نشاطهم وما جاورها من مدن بعض الدول المغاربية وزرع الفنتة بين أتباعهم لذلك سعت السلطات الفرنسية من خلال عمل المكتب إلى محاولة تنظيم المجتمع الصحراوي خدمة لمصالحها، وبالتالي تخريب النسيج الاجتماعي المتماسك للجزائر، والتحكم في التجارة الصحراوية من خلال مراقبة الطرق والتجسس على المارين بها، إذاً فتقارير المكتب العربي ساهمت في التمهيد للظاهرة الاستعمارية العالمية وكانت أحد أسباب فشل الثورات الشعبية في الجنوب الشرقي تحقيقاً مصالحها التوسعية في الصحراء الجزائرية، لأن بسط النفوذ والأمن والاستقرار في الجنوب يعني تسهيل عملية التوغل إلى باقي الدول الافريقية.

وبفضل مجهودات الجامعة الجزائرية وخصوصًا المدرسة التاريخية تم ازالة النقاب والكشف عن مواضيع جديدة ومهمة تخص مناطق الجنوب الجزائري في مختلف الفترات، وفي مختلف جوانب الحياة خلال الفترة الاستعمارية.

الهوامش:

1-عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط.1 بيروت،1997، ص 129.

2-نابليون الثالث: هو لويس نابليون بونابرت ولد عام 1808م بباريس انتخب رئيس لدولة فرنسا من طرف الجمعية الوطنية شهر ديسمبر 1848م سلك سياسة خاصة به وفي ديسمبر 1851م ألغي النظام الجمهوري وأنشأ الامبراطورية الثانية التي تربع على عرشها لغاية انهزام جيشه في معركة سسيدان واستسلامه هناك في 2 سبتمبر 1870م. توفي في انجلترا عام 1873م. أنظر: عمار بوحوش، المرجع السابق، ص126

3-راضية بن حبرو، المكاتب العربية ودورها في انجاح السياسة الفرنسية بالجزائر 1844-1900، جامعة محمد خيضر بسكرة 2012-2013 ص.20

4-أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، د.ط ، مكبة النهضة المصرية، القاهرة 1956 ، ص 97 .

5- فاطمة حباش، المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1870-1844) تيارت، سعيدة، جيرفيل، البيض نمادجا، شهادة دكتوراه، جامعة وهران، 2013-2014،ص .70

6-بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830إلى 1989، الجزء الاول، دار المعرفة الجزائر، 2006، ص230.

7-أحمد توفيق المدني،كتاب الجزائر،، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1984،ص 248.

8-أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول دار البصائر، الجزائر، 2007، ص.20

9-نفسه، ص 20.

10-بشير بلاح، المرجع السابق، ص.117

11- بيليسيه دي رينو: ضابط عسكري شارك في أهم الحملات العسكرية على الجنوب و كان عظوا في لجنة الاكتشاف العلمي بالجزائر شغل رئيس المكتب العربي العاصمة

من(1833-1835)، اهتم بالتاريخ الحديـــث و النظم و العادات كتب عدة مؤلفات عن الجزائر، تونس إفريقيا، توفي في 16 ماي 1858م بباريس. أنظر:

Narcisse faucon, livre d'or de l'Algérie tome 1, challamen, Paris, 1889, PP 446 447.

12-القرار الوزاري 1 فيفري 1844م:هو قرار وزاري يقضي بالترسيم الشرعي للإدارة العربية أصدره بيجو في 01 فيفيري 1844م بعدما اقتنع بتقرير دوماس Daumas الذي لخص فيه نواياه تجاه الأهالي وأنه لابد من الاستعانة بالزعماء الجزائريين ولكن تحت امرة سلطة القادة الفرنسيين، ويقضي القرار الوزاري بإنشاء نظام المكاتب العربية يسمح باستغلال كل إمكانيات الجزائريين . أنظر: فاطمة حباش، المرجع السابق، ص ص60-61. وكذا:

- Peyronnet(R) Livre D'or des officiers Des Affaires Indigènes 1830-1930, T.1.Imp.P.et G.soubiron,Alger,1930,Pp 29-31.

13-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق،20.

14- Peyronnet(R), Op.Cit,P84.

15- فاطمة حباش،المرجع السابق،ص.65

16-يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، ديوان المطبوعات الجامعية د.ط 2007م ص .17

17-عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الاولى،2002، ص .128

18-عمار بوحوش، المرجع السابق، ص132.

19-عبد الحميد زوزو، الاوراس ابان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية 1837-1939م، ج1، دار هومة الجزائر،2005م، ص .194

20-فاطمة حباش،المرجع السابق، ص.61

21-عمار بوحوش، المرجع السابق، ص143

22-عمار بوحوش، المرجع السابق ، ص.152

23-Trumelet(colonel)Histoire de l'insurrection Des Oulad-Sidi-ech-Chikh (sud algérien) De 1864a 1880 Adolphe Jourdan , Libraire-éditeur Alger 1884, p8.

24-بشير بلاح، المرجع السابق، ص ص.293

25-قانون الانديجينا: عبارة عن سلسلة من العقوبات الزجرية لا صلة لها بالقانون العام حيث حدد هذا القانون 41 مخالفة خاصة بالأهالي في نفس السنة، وخفضت إلى 21 مخالفة عام1891م.أنظر: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص28.

26-عمار عمورة ، المرجع السابق،ص129.

27-بشير بلاح، المرجع السابق ، ص 233.

28- إبراهيم بن أيوب بليدي، إعطاء الضوء للصحراء، المطبعة الجديدة يزوريقيس، سكيكدة، قسنطينة،1903، ص 4.

29-عادة ما يقومون بمساعدة موظفي المحاكم مع أصحاب القضايا الذين لا يفهمون اللغة. والترجمة التي يقوم بها الترجمان المحلف كافية وحدها في المحكمة بحيث يمكن الاستغناء عن الأصل المترجم.

30-دوران: هو النقيب دوران رئيس المكتب العربي بالأغواط خلال فترة السبعينات من القرن التاسع عشر ، قدم الكثير من التسهيلات والتوضيحات للمستكشفين الأوروبيين للصحراء الجزائرية ، جمعته علاقات طيبة مع قياد مدينتي الاغواط وغرداية خلال مدة عمله بهما. أنظر:

-Paul Solleillet, Voyage de Paul Solleillet D'Alger a l'Oasis D'in-Salah,Alger, Typographie et lithographie a Jourdan,1875,p17.

31-عمار بوحوش، المرجع السابق، ص132

32-بشير بلاح، المرجع السابق، ص230.

33-يوسف بن بكير الحاج سعيد، يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية ط. 2 المطبعة العربية غرداية، 2005 ، ص ص 132-133.

34-استقرا اولاد سيدي الشيخ بواحة الابيض سيدي الشيخ، بالجنوب الوهراني مطلع القرن 16م، وأسسوا بها زاويتين مشهورتين. اندلعت ثورتهم في مارس 1864م نتيجة المعاملة السيئة للسكان من طرف الفرنسيين، انطلقت الثورة من البيض بقيادة سي سليمان بن حمزة ثم تابع اخوته وأعمامه الثورة حققوا عدة انتصارات على الفرنسين شكل امتدادها إلى معظم المناطق الداخلية الغربية والوسطى وشمال واحات الشرقية للصحراء والأطلس التلي، قلقاً خطيراً على الوجود الفرنسي في هذه الرقعة الجغرافية مدة ست عشرة سنة. أنظر: Ibid, p4.

35- هو محمد بن التومي بن ابراهيم الغيشاوي والمعروف باسم "بوشوشة" بمعنى الفارس ولد بقرية الغيشة بجبال العمور حوالي 1827م، كان في بدايته راعياً مثل أجداده، رفع لواء المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي منذ عام 1862م عندما اعتقلته السلطات الاستعمارية في ديسمبر ببوخنيفيس قرب مدينة سيدي بلعباس، إلا أنه تمكن من الفرار من السجن عام 1863م.إتجه إلى الحدود المغربية ومنها توات أين شرع في التحضير لمقاومته حيث تمركز في عين صالح وأعلن نفسه شريفا عليها، إنضمت إليه قبائل من أهل توات وشعانبة متليلي، والمنيعة ، وورقلة ،إنضم إليه ناصر بن شهرة عام 1869م شكل بعمله الثوري حجرة عثرة أمام مشاريع فرنسا التوسعية في الجنوب الشرقي، وقام بمهاجمة المتعاونين مع فرنسا، لذلك كلفت فرنسا بعض الموالين لها من الجنوب الشرقي للقضاء عليه ، وتم لهم الامر بإعدامه يوم 29جوان 1875م بقسنطينة. أنظر: حمو محمد عيسى النوري نبذة من حياة الميزابين، ج 1 دار الكراون، باريس 1984، ص ص295-300.

36- محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجة للشرق الجزائري، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع الجزائر،1972، ص166

37- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص.49

38- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص 40.

39- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص.50

40- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص ص 50-51.

41- يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، ط. 2، المطبعة العربية، غرداية، ص 135.

42- رضوان شافو، الجنوب الشرقي خلال العهد الاستعماري ورقلة نموذجا، 1844-1962، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر2 ،2011. ص 125. وكذا:

- Paul Solleillet, Op.Cit,pp70-80

43- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص50.

44- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص49.

45- حمو محمد عيسى النوري، المرجع السابق، ص 298-300.

46- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص ص 56-59.

47- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص 34. تحول سي الزوبير ولد بوبكر سيدي الشيخ من خادم للفرنسيين إلى مقاوم لهم بعد اندلاع ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م بعدما ألغت فرنسا امتيازاتها له وقللت من شأن عائلته وإنظم إلى جانب أخوه سي لاعلى وساند بوشوشة الذي جعله آغا على مدينة ورقلة. ونرى من خلال التقارير تودد فرنسا إليه قصد تخليه عن السلاح والالتحاق بها وخدمتها، والقضاء على الثائر بوشوشة مقابل امتيازات كثيرة.

48- المدقنات: المدقنة نسبة إلى رجل ترقي، وأول من أطلق هذه التسمية أحد كبار شعانبة ورقلة وهو معطي الله بوطير الذي كان في ضيافة شعانبة المواضي، فقدم لهم زعيمهم بوبكر بن عبد الحاكم اثناء مجاعة 1867 عنزة مشوية ولكن دون سمن ولا ملح فقال له بوطير مازحاً:" الطوارق مدقنات " أي صعاليك وأطلقت التسمية على الجماعة التي كانت أغلب أعمالها السطو في الصحراء وقد تكونت سنة 1868م.أنظر:

- Le Chatelier, les Medaganant , In : R.A. N^{0} 30 ,1886, PP39-40.

49- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص46.

50- إبراهيم بن أيوب بليدي، المصدر السابق، ص34.